التحليل البلاغي في الموروث

د. ناهدة محمد محمود

البلاغة علم من علوم اللغة العربية وكانت من مقاييس النقد الادبي منذ عهد مبكر بل هي روح الادب تعلم صنعه وتبصر بنقده.

والبلاغة لغة: الوصول والانتهاء، وفي لسان العرب: " بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى.

واشار ابن منظور الى المعنى الاصطلاحي فقال: البلاغة: الفصاحة، والبلغ والتبلغ: البليغ من الرجال. ورجل بليغ: حسن الكلام فصيحه ببلغ بعبارة لسانه كته ماني قليه والجمع بلغاء.

فهي اولاً الانتهاء والوصول وهي ثانياً الفصاحة وحسن القول وقد جاءت في القرآن الكريم بهذين المعنيين ضمن الاول قوله تعالى: " ولما بلغ اشده"ii. وقوله تعالى: " وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس"iii وهذا هو الوصول والانتهاء.

اما المعنى الثاني فكقوله تعالى: " فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في انفسهم قولاً بليغا" وكلمة "البلاغة" استخدمت بهذا المعنى العام وظلت سنوات تحمل فن القول حتى اذا بدأت علوم اللغة العربية تظهر واخذت العلوم تستقر ظهر معناها العلمي فقال السكاكي: " هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص يتوفيه خواص التراكيب حقها وايزاد التشبيه والمجاز على وجهها"iv ولكن تعريف السكاكي قاصر عن فنون البلاغة لانه لم يدخل علم البديع في ابوابها.

وكان الخطيب القزويني آخر من وضع معالم البحث البلاغي وقد فرق بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم فقال عن الاولى: " واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"v. ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير بابين مقام التعريف ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد والفصل ببيان الوصل ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة، وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي ولكل كلمة مع صاحبها مقام.

وقال القزويني عن الثانية:" واما بلاغة المتكلم فهي ملكه يقتدر بها على تأليف كلام بليغ"vi، وقسم البلاغة الى ثلاثة اقسام:

١. علم المعاني: وهو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال.
٢. علم البيان: وهو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.
٣. علم البديع: وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته.

اذن البلاغة قسمان قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ وهذان هما المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية.

ان البلاغة بهذا المعنى الذي استقر عند المتأخرين تعني العلم الذي يبحث في تركيب الكلام وصوره البيانية من تشبيه ومجاز وكتابة ومحسناته اللفظية والمعنوية وقد رأى البعض من هذا العصر ان يسمى هذا العلم "فن القول" او "فن التأليف الادبي" او "علم الاساليب" او فن الانواع الادبية وحجتهم في ذلك ان مصطلح البلاغة قدرت من كثرة ما تداولته الاجيال واصبح مقترناً بألوان الادب القائمة التي خلفتها العهود المتأخرةvii.

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى للبلاغة والنقد قبل عهد التدوين والتأليف يجد ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية التي اعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده. والامة التي انجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابد ان تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسمها الخطباء واذا كان كثير من الاحكام النقدية لم يصل مع ما وصل من شعر وخطب فان بعض تلك الاحكام تناقلته الالسن وتداولته الكتب وقد وصف القرآن الكريم العرب بانهم اصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى:" الرحمن. علم القرآن. خلق الانسان. علمه البيان" وقال عن حسن كلامهم وشدة اسرة وتأثيره في النفوس:" ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا"viii.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الاحكام النقدية والقضايا البلاغية قبل الاسلام:

ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية والقضايا البلاغية قبل الاسلام بامرين الاول عقلي لا يمكن انكاره وهو انه لا يصدق ان الشعر وصل الى ما وصل اليه في ذلك العصر والخطابة بلغت ذروتها واللغة اخذت صورتها من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا وقالوا مهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ومهما وصفوا العرب بالفطنة والذكاء فان العقل كنكران يكون ما كان من غير ثقافة ودربه وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح امامهم سبل القول. وقد تكون المصطلحات البلاغية غير معروفة انذاك لكن الفنون البلاغية التي وردت في الشعر تشهد ان العرب كانوا يعرفون الاساليب المختلفة والصور المتعددة التي تزيد كلامهم جمالاً.

فمن الاستعارة قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر ارخى سدوله

عليّ بانواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه

واردف اعجازا وناء بكلكل

والليل لا صلب له ولا عجز ولكن الشاعر استعار له ذلك من الكائن الحي.

ومن الجناس قول امرئ القيس:

لقد طمح الطماح معد يعد ارضه

ليلبسني من دائه ما تلبسا

فالجناس في "طمح" و"الطماح" وفي "ليلبسني" و"تلبسا".

ومن الطباق قول امرئ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل

والطباق في "مكر" و"مفر" وفي "مقبل" و"مدبر".

ومن رد العجز على الصدر قول امرئ القيس:

اذا المرء لم يخزن عليه لسانه

فليس على شيء سواه بخزان

فقوله:" يخزن" و"خزان" من رد العجز على الصدر

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذه الفنون كثير في شعر المتقدمين. ومعنى ذلك ان الشعراء كانوا ينزعون منزعاً فنياً تعارفوا عليه وانهم كانوا يحبون بما لمثل هذه الفنون من اثر في الكلام وقيمه في التعبير ولن يجيء ذلك الا عن وعي وادراك وفهم للمعاني المختلفة التي تورثها تلك الالوان البلاغية وهذا الوعي والفهم يوحيان بان البلاغة معروفة لا بمعناها التعبيري فحسب وانما بدلالتها الفنية وهذا ما يؤيد اصالة هذا الفن عند العرب، ويقطع ما يثار من شكوك وريب في نشأة البلاغة العربية وتطورها.

الثاني نقلي وهو ما اثر عن العرب وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بانفسهم ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه الذي رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان:" تسمع بالمعيدي لا ان تراه" فقال:" ابيت اللعن ان الرجال لا تكال بالقفزات ولا توزن بالميزان وليت بمسوك تستقى وانما المرء باصغريه: بقلبه ولسانه. ان صال صال بجنان وان قال قال ببيان"ix.

واستدل الجاحظ من الفاظ "العيي" و"اليكيء" و"الحصر" و"المفحم" و"الخطل" و"السهب" على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيراً من عيوب الخطابة والبلاغة ولولا ذلك ما ذكروا هذه العيوبx. ووصف العرب كلامهم في اشعارهم فجعلوها كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي ووصفوا شعراءهم واضفوا عليهم القابا كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والافوه والنابغة وكان بعض الشعراء يعنى باشعاره وينقحها قبل ان يذيعها بين الناس وقد اشتهر زهير بن ابي سلمى بالحوليات وكان الحطيئة يقول" خير الشعر الحولي المحكك" وهذا يدل على انهم كانوا يعرفون فنون القول ويفرقون بين الجيد والرديء والحسن والاحسن ولولا معرفتهم بذلك لما وقفوا طويلاً امام قصائدهم ينقحونها.

ان العرب عرفوا الاحكام النقدية والبلاغية وكان ايمان العربي واعتناقه الاسلام حكماً نقدياً ادركه بذوقه السليم وفطرته الصافية وخبرته الطويلة. واضفت احاديث الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" على العرب ببلاغة جديدة وكانوا يرددون قوله عليه السلام:" ان من البيان لسحرا" وكان الخلفاء الراشدون والصحابة يستمعون الى الشعر ويبدون رأيهم فيه. وازدهرت الحياة الادبية في العصر الاموي وكان الخلفاء يعقدون المجالس ويستمعون الى الشعراء ويعلقون على بعض ما يسمعونه.

الاهداف:

لقد تظافرت اسباب اهداف كثيرة

دفعت العرب الى الخوض في الدراسات البلاغية لانهم وجدوا تحديات كثيرة تعرضت لها الامة العربية بعد ان دخل في الاسلام قوم ارادوا هدمها وتقويض الدولة العربية. يضاف الى ذلك الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد ان خرجوا من جزيرتهم دفعتهم الى العناية باللغة والادب واياممهم ويمكن تلخيص الاهداف في ثلاثة:

الاول: الهدف الديني: وهو خدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدي الانس والجن. ولكي يسر القول على اعجازه ويفهموا اياته واسلوبه ليستنبطوا الاحكام منه اتجهوا الى البلاغة باحثين فنونها موضحين اقسامها لتكون لهم عوناً في فهم التراث وكان هذا من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها.

الثاني: الهدف التعليمي: وهو تعليم الناشئة اللغة العربية ومعرفة اساليبها بعد ان اتصل العرب بأمم شتى وادى هذا الاتصال الى فساد اللغة ودخول اللحن فيها يضاف الى ذلك ان كثير من المسلمين كانوا بحاجة الى تعلم اللغة العربية وبلاغتها ليفهموا كتاب الله.

الثالث: الهدف النقدي: وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل والبلاغة تعين الناقد كثيراً لانها تقدم له الالة التي تهيء له الفهم والحكم. لذا اعتنى القدماء عناية كبيرة بها وألفوا الكتب فيها وقد اشار ابو الهلال العسكري الى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله:" ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة منها ان صاحب العربية اذا اخل بطلبه وفرط في التماسه فاتته فضيلته وعلقت به رذيلة قوته عني على جميع محاسنة وعمي سائر فضائله لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد بان جهله وظهر نقصه وهو اذا اراد ان يضع قصيدة او ينشء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشي العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل كما فعل ابن جحدر في قوله:

حلفت بما ارقلت حوله
همرجلة خلقها شيظم
وما شيرقت من تتوفية
بها من وحي الجن زيزيم

وانشده ابن الاعرابي فقال:" ان كنت كاذباً فالله حسيبك". ويتصل بالهدف النقدي رواية الادب ومعرفة الجيد الذي يروى والرديء الذي ينبغي ان يطرح وقد اشار ابو هلال الى ذلك بقوله:" وقد قيل: اختبار الرجل قطعه من عقله كما ان شعره قطعة من علمه".

هذه الاهداف وغيرها كانت دافع قوي حفز العرب والمسلمين للخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها. وكانت هدف المؤلفين جميعاً ولا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليهاxi.

المؤثرات:

البحث البلاغي له جذور امتدت الى عهد مبكر ولعلها امتدت الى ما قبل الاسلام فهو لم يظهر فجأة ولكن ما وصل من اخبار يشير الى ان البذرة الاولى ظهرت حينما نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين وحينما كان الرسول العظيم محمد "صلى الله عليه وسلم" يشيد بالشعر المؤثر ويقول:" ان من البيان لسحرا" ويتحدث بأعذب الكلام وابلغه ويدعو الى تجنب الالفاظ الموحية بما لا يحسن كقوله "لا يقولن احدكم:" خبثت نفسي" ولكن ليقل" لقست" كراهية ان يضيف المسلم الخبث الى نفسه. وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يدعو الى تجنب حوشي الكلام وغريبه ويحث على ترك المعاضلة ويقول عن زهير ابن ابي سلمى انه "لا يعاظل بين الكلام"xii.

واهم المؤثرات التي رفدت البحث البلاغي خلال القرون السبعة الاولى بعد الهجرة المحمدية هي:

١. المفسرون والاصوليون.

حينما اختلفت وجهات النظر في الاعجاز القرآني وتشعبت سبل القول لان الوصول الى ذلك صعب وتحديد وجوه البلاغة في القرآن اصعب فكانت دراساتهم احسن مصدر للبلاغة واجل مورد لمن اراد ان يتذوق القرآن ويفهم البيان ومن اشهر الذين عنوا بالاعجاز وببلاغة القرآن ابو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي صاحب كتاب (اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) وابو الحسن علي بن عيسى الرماني صاحب رسالة "النكت في اعجاز القرآن" الذي ذهب الى ان كتاب الله معجز ببلاغته وهو اعلى طبقات الكلام وكان للمفسرين دورهم في نشأة البلاغة العربية وتطورها وكانت احدى الوسائل

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

في كشف اسرار الاعجاز وتبيان ما في الآيات البينات من روعة وجمال وقد وضع المفسرون لكتبهم مقدمات بلاغية تحدثوا فيها عن البلاغة وفنونها ونبهوا الى اهمية ذلك امثال الطبري في مقدمة تفسيره، وقد اثر الاصوليون والفقهاء في البلاغة وفي كتب اصول الفقه بحوث مستفيضة عن الخبر والانشاء والحقيقة والمجاز وهي بحوث تدل على استئثار علم الاصول بها ومن هؤلاء السكاكي وبهاء الدين السبكي.

ان اهتمام علماء اصول الفقه والفقهاء بالمباحث البلاغية التي وشحوا بها كتبهم او ألفوا فيها وعدوها من طرق الفقه واصوله دفع البلاغيين الى وضع القواعد الواضحة والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم اليها في استنباط الاصول والاحكام[xiii].

الثاني

٢. اللغويون والنحاة:

كان للغويين يد طولى في نشأة البلاغة وتطورها منذ عهد التدوين واستطاعوا ان يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ويردوا المحدثين وما ذهبوا اليه واخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين مستفيضة وهذا الخلاف بينهم افاد الادب ودفع الجميع الى البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السديدة وبين النحاة الذين كانت لهم مشاركات بلاغية ابو بشير عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه فقد تحدث بكتابه المشهور عن الاساليب العربية وتعرض لبعض فنون البيان ومنهم الفراء (ابو زكريا يحيى بن زياد) الذي كان كتابه "معاني القرآن" دراسة اسلوبيه لآيات الكتاب وموردا عد عذبا يريد ان يبحث في اصول البلاغة العربية واصالتها وثعلب في كتابه قواعد "الشعر" من اوائل الكتب البلاغية والنقدية ذات الصيغة العلمية في ترتيب الموضوعات والكلام عليها وهذا الكتاب كان قبساً استضاء به ابن المعتز في كتابه (البديع) الذي ادى فيه انه لم يسبق اليه مع ان استاذه ثعلب سبقه الى ذكر مصطلحات البلاغية والتعريف بها وذكر الامثلة ولكن اهم نحوي اثر في البلاغة العربية هو عبد القاهر الجرجاني صاحب "دلائل الاعجاز" و" اسرار البلاغة" وهذان الكتابان هما زبدة البلاغة العربية واساس البحث فيها وكانت نظرية النظم التي ارسى عبد القاهر الجرجاني قواعدها اعظم ما وصل اليه العرب القدماء وهي نظرية ظهر مثلها في الغرب خلال هذا القرن وزخر العالم بمؤلفاتها البنيوية في العلوم المختلفة وقد بين الزمخشري تفسيره على ارائه واعتمد الرازي عليه في كتابه "نهاية الايجاز" وبين الزملكاني كتابيه "التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن" و"البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن" على كتابي عبد القاهر[xiv].

الثالث:

الشعراء والكتاب: كان الشعراء منذ الجاهلية يعنون بالقول ويجودون اشعارهم وينقحونها وقد دلت الملاحظات البيانية على انهم كانوا اصحاب ذوق رفيع ومعرفة واسعة بجيد الشعر ورديئه وحسنه واحسنه وفي شعورهم وذوقهم حينما تقدم بهم الزمن اكثر ملاحظاتهم حتى اذا جاء العصر العباسي ودخل العرب حياة جديدة تطورت نظرتهم الى الشعر وتوسع ادراكهم لما فيه من روعه وجمال او تصنع وطبع وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ان بشار بن برد كان ينتقد الشعر ويشير الى جيده ورديئة وقد انشد قول الشاعر

وقد جعل الاعداء ينتقصوننا وتطمع فينا ألسن وعيون

الا انما ليلى عصا خيزرانه

اذا عمزوها بالاكف تلين

فقال والله لو زعم انها عصا او عصا زيد لقد كان جعلها جافية خشنة بعد ان جعلها عصا الا قال كما قلت:

ودعجاء المحاجر من معد

كان حديثها ثمر الجنان

اذا قامت لمشيتها تثنت

كأن عظامها من خيزران

وفي كتب الادب كثير من هذه الاحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر العباسي وتوجيههم النقد والبيان قال ابن المعتز "البديع اسم موضوع الفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم قاما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو".

وكان للكتاب اثر واضح في البلاغة فقد صيغوا كثيراً من بحوثها بصيغة ادبية لما امتازوا به من ادب رفيع وذوق سليم. وهم الذين قال الجاحظ عنهم "اما انا فلم ار قط امثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشياً ولا ساقطاً سوقياً".

ويتصل بالشعراء والكتاب بعض النقاد الذين اثروا في البلاغة كأبي الحسن محمد ابن احمد ابن طباطبا صاحب "عيار الشعر" والامدي مؤلف "الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري".

ويتصل بهم ايضاً اصحاب البديعيات الذين نظموا قصائد في مدح الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" على غرار البردة للبوصيري وقد ضمنوها فنون البلاغة. ومن اشهرهم: صفي الدين الحلي وابن جابر الاندلسي وعز الدين الموصلي وابن حجة الحموي وجلال الدين السيوطي والخ. واهم تلك الشروح "خزانة الادب" للحموي و"انوار الربيع في انواع البديع" لأبن معصومxv.

الرابع:

الفلاسفة والمتكلمون: الفلسفة وعلم الكلام والمنطق اثرت في البلاغة العربية وتسربت الى مناهجها وصورها وتقسيماتها وامتلأت كتها بالالفاظ الفلسفية والحدود المنطقية والنزعة الكلامية، وقد تجلى ذلك بوضوح بعد جنوح الادب الى التقليد وسيطرة النزعة العقلية على مقاييسه والبلاغية والنقدية ولعل فخر الدين الرازي اول من اتجه بالبلاغة وجهة فلسفية وذلك حينما وضع كتابه "نهاية الايجاز في دراية الاعجاز" وتبعه السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" وتوالت المؤلفات والشروح مثل الخطيب القزويني وبهاء الدين السبكي والتفتازاني وغيرهم.

٤. الاتجاهات

كانت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الادبية اللغوية ومنها الفلسفية الكلامية وقد ادى ذلك الاختلاف في المؤثرات الى ان تتجه البلاغة اتجاهين اطلق عليهما اسم "المدرسة الكلامية" و"المدرسة الادبية". وقد نبه ابو هلال العسكري الى منهجين في دراسة البلاغة وكذلك جلال الدين السيوطي. ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما صرح ابو هلال بها منذ وقت مبكر وافتخر السيوطي بانه درس البلاغة والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم واهل الفلسفة.

الاولى: المدرسة الكلامية: ظهرت نتيجة الاثر الكبير لعلوم الفلسفة والمنطق في الثقافة الاسلامية والعربية وكان للبلاغة نصيب من ذلك الاثر فتوقفت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين العلوم العقلية وبلغ اوج ذلك الاتصال في القرن السادس الهجري وما بعده على يد السكاكي صاحب مفتاح العلوم والخطيب القزويني صاحب "التلخيص" و"الايضاح" وشرح التلخيص. ومن مظاهر الاثر الفلسفي الاقلال من الشواهد والامثلة الادبية لان رجالها اهتموا بالتجديد المنطقي والحصر والتقسيم فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهداً واحداً اومثالاً قصيراً او بعض الشواهد والامثلة التي خلت من الخيال او المسحة الفنية لان الهدف هو التمثيل والاستشهاد العقلي. لان ما يثيره النص في النفس من انتفعال او شعور. واهم كتب هذه المدرسة: نقد الشعر لقدامة بن جعفر والبرهان في وجوه البيان" لأبن وهب الكاتب. ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

الثانية: المدرسة الادبية: التي ظهرت نتيجة عوامل اخرى غير الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وكان من اهمها القرآن الكريم الذي طبع بحوث البلاغة بطابع ادبي ويتجلى ذلك في كثرة الشواهد التي اقتبسها البلاغيون من كتاب الله وكان الشاعر ابن المعتز من اوائل الشعراء الذين وضعوا كتباً فيها وكتابه "البديع" واحداً من تلك الكتب التي ألفها الشعراء خلال القرون الماضية. وقد طبعت هذه المؤثرات (القرآن والكتاب والشعراء" البلاغة بطابع ادبي وكان نتيجة ذلك ان اتجهت اتجاهاً آخر وسلكت طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية وهذا الاتجاه الذي سارت البلاغة فيه هو الذي ارسى قواعد المدرسة الادبية ووطد اركانها، ومن خصائص هذه المدرسة الابتعاد عن التحرير والتقسيم وان جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق ونفاذ والتزام. وانها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على الادب ولذلك تعلل مرة ولا تستطيع التحليل مرة اخرى والاكثار من الشواهد والامثلة ويذكرون القاعدة بسطر ويأتون بالامثلة التي تتجاوز الصفحات. من اشهر شعرائها ومؤلفيها ابن المعتز وابو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وغيرهم.

هاتان هما المدرستان البلاغيتان وقد تضمنت لكل منهما سمات وافردت لها صفحات وكتب ولكن هل هناك حد فاصل بين الذين اتبعوا الطريقة الكلامية والذين نهجوا سبيل المدرسة الادبية؟ ليس ذلك بالواضح فكثيراً ما يمزج البلاغي الواحد بين الطريقتين ويستفيد من المدرستين فالجاحظ مثلاً وهو رأس فرقة اعتزالية تسمى "الجاحظية" يميل الى الناحية

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الادبية ويحكم الذوق في كثير من الاحيان. وابو هلال العسكري مع اقراره انه لم يتبع طريقة المتكلمين يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في مضمارهم وكان عبد القاهر الجرجاني يميل مرة الى المدرسة الكلامية في كتابه "دلائل الاعجاز" ويتجه الى المدرسة الادبية في كتابه "اسرار البلاغة" ففي الاول يجادل جدلاً منطقياً ويكرر اساليب اهل الكلام ولعل السبب انه يبحث في اعجاز القرآن الكريم ويقارع اهل النحل الزائغة ويرد اقوالهم ويفند اراءهم.

وفي كتابه الثاني اديب بليغ يعمد الى التحليل واظهار ما في الكلام من بلاغة وجمال ولم يكن في ذلك ما يدعو الى الاستعانة بالاساليب العقلية لانه ليس بصدد البرهنة على الاعجاز والرد على الطاعنين ببلاغة القرآن وانما هو يصدر تحليل كلام العرب والوقوف على اسراره وليس في ذلك ما يدعو الى الحجج العقلية والادلة المنطقيةxvi.

وممن جمعوا بين المدرستين يحيى بن حمزة العلوي في كتابه "الطراز" المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز، والرازي صاحب كتاب "النهاية" وغيرهم.

٥. المناهج:

استقر البحث البلاغي بعد القرن السابع الهجري على ممارسة السكاكي في القسم الثالث من "مفتاح العلوم" وظل تلخيص الخطيب القزويني عمدة البلاغيين مع ان البديعيات ظهرت في ذلك العهد وكان منهج شروحها اقرب الى كتاب "البديع" لابن المعتز و"البديع في نقد الشعر" لأسامة بن منقذ ومنهج التلخيص لا يختلف عن منهج مفتاح العلوم اختلافاً كثيراً بدأه القزويني بمقدمة في فصاحة المفرد والكلام وعرف البلاغة بقوله:" البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته". وان البلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى بالتركيب ولها طرفان: اعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه. واسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء باصوات الحيوانات. وقسم البلاغة الى ثلاثة علوم:

١. علم المعاني: وبه يعرف احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.
٢. علم البيان: وهو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.
٣. علم البديع: وبه يعرف وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابق ووضوح الدلالة وهو ضربان معنوي ولفظي.

وختم كتابه ببحث السرقات الشعرية وما يتصل بها من الاقتباس و التضمين والحل والعقد والتلميح وعقد فصلا في حسن التخلص وحسن الابتداء وحسن الانتهاء.

وتعتبر البلاغة خاضعة لمنهج السكاكي وتابعيه كالقزويني والتفتازاني والسكاكي. وقد حاول الاستاذ محمد عبده ان يعيد الى البحث البلاغي رواءه وان يقوم ما اعوج من مناهج البحث وطرائق التدريس واخذ يدرس في الازهر الشريف كتابي "دلائل الاعجاز" و"اسرار البلاغة" وطبع الكتابان ولكن اساتذة الازهر احجموا بعد الامام عن تدريسهما وعاد منهج القزويني وشراح التلخيص.

وحاول المحدثون ان يضعوا مناهج بحث البلاغة الجديدة بعد ان وقفت عند الرسوم التي حددها السكاكي والقزويني ومن هؤلاء طه ابراهيم احمد وامين الخولي الذي يرى ان التقسيم القديم لا اساس له ولا غناء فيه لان البحث البلاغي ينبغي ان يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة لا البحث في الجملة والجملتين. واستبعاد طريقة العجم واهل الفلسفة من مقدمات منطقية محشوة واستطرادات فلسفية مختلفة واستبدالها بمقدمات جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس واثره في التعبير الادبي والوجداني وتكلم " ادور مرقص" في مقالته " نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وادابها" على انواع البديع المقترحة قال:" ان هذا الفن اصبح معرضاً لناموس رد الفعل فهو الان محتاج الى شيء من الاندغام والاندماج عوض ما وقع فيه من التمرد المفرط المحسوب مضلة ومتاهة ومن ثم اجتهدت في رد انواعه الى اجناس قليلة يدخل تحت كل جنس منها عدة انواع وامهات الاجناس البديعية التي تنبه لها. الموافقة والمخالفة والترتيب والمبالغة والاستدراج والتلميح وحسن التعليل والابهام والتدقيق والتوليد والكلام الجامع، ويرى انيس المقدسي: ان تبويب موضوعات البلاغة القديم لا يفيد كثيراً ولذلك وضع تبويباً آخر ليكون اقرب الى واقع اللغة قال: رأينا ان مقاييس البلاغة لم توضع اعتباطاً ولا توقيفاً بل ترجع الى اعتبارات نفسية عامة وقد اهتم علماء العربية قديماً بهذه المقاييس وتدارسوها في اقسامها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع وافتى الشعراء والمنشؤون في التأنق بصورهما، على ان العلماء مع

توفرهم على درسها وشرحها لم يعنوا بتبويبها منطقياً يسهل على الباحث فهم حقيقتها والرجوع الى اصولها". وبوبها تبويباً جديداً وحصر في ستة ابواب هي باب التعادل وباب التواطؤ اللفظي وباب المغايرة وباب الخروج على المعتاد وباب الايحاء الى غرض. ولا يختلف هذا المنهج كثيراً عن المنهج القديم فكلاهما عودة الى البلاغة كما حددتها البديعيات. هذه اهم المناهج التي ذكرها المحدثون.

الخلاصة

ان البحث البلاغي يقتضي العودة الى التراث واستقرائه واخذ ما فيه النفع وانارة السبيل وليست كل الكتب بنافعة في هذا الميدان ففي كثير منها ما تخطاه الزمن وما لا يعلم للحياة المعاصرة ولكن جهود البلاغيين تظل اساساً في رسم المنهج وطريقة العرض للموضوعات ولعل آثار المدرسة الادبية اكثر الكتب نفعاً في هذه الدراسة لانها تحمل بذور الذوق الاصيل والنظرة الفنية الصادقة. وكتاب الايضاح وشروح التلخيص للخطيب القزويني تبقى مصدراً اساسياً للبحث البلاغي لان فيها التقسيم العقلي والتجديد المنطقي والعرض الدقيق. ولكنها لا تعكس التصور الجديد اولاً ولان فيها كثيراً من المباحث الغريبة عن البلاغة ثانياً واول عمل يقوم به المجدد النظر في تلك الكتب وتحريرها من كل غريب واضافة ما ينتفع ويلقي الضوء على الفنون ويتمثل هذا النظر في مسألتين:

اولاً: المنهج: وهو صورة من منهج السكاكي وان اجرى القزويني فيه بعض التعديل.

ثانياً: المعالجة: ويراد بها طريقة القزويني وشراح تلخيصه في دراسة الموضوعات البلاغية وقد اصبحت البحوث الجديدة لا تحتمل اقحام المباحث القريبة على القضية المدروسة. ولذلك ينبغي تجريد البلاغة من المسائل الكلامية والفلسفية وهي كثيرة في شروح التلخيص.

تلك نظرة في مناهج البحث البلاغي وتبقى مسألة اخيرة تعطي بُعداً جديداً وهو معالجة فن القول وقد اتضح في الموازنة بين السكاكي وابن الاثير ان الاول ينحى منحى عقلياً في العرض والتحليل وان الثاني يسلك مسلكاً ذوقياً والفرق بين الاتجاهين كبير ولا يغني احدهما عن الآخر لان الباحث ينبغي ان يضع يده على مواطن الجمال والروعة والتأثير في النص الادبي ولا يكتفي بالاشارة الى ذلك الجمال لانه لا يقنع الدارس ولا يقرب اليه الموضوع.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر و المراجع :

i لسان العرب: بلغ.

ii سورة النحل ٧.

iii سورة النساء ٦٣.

iv مفتاح العلوم، ص١٩٦.

v الايضاح ص٩، التلخيص ص٣٣.

vi المصدر السابق١١، ٣٦.

vii مصطلحات بلاغية ص٤٩ وما بعدها.

viii البقرة ٢٠٤.

ix البيان والتبيين، ج١، ١٧١، ٢٣٧.

x المصدر نفسه، ج١، ص١٤٤-١٤٥.

xi البحث البلاغي عند العرب، ص٢٥ وما بعدها.

xii نقد الشعر، ص١٩٦.

xiii التفصيل في مناهج بلاغية ص٥٢-٧٨.

xiv التفصيل في مناهج بلاغية ص٨١-١١٨.

xv العمدة، ط١، ص٢٠٠.

xvi البلاغة عند السكاكي، ص١١٢.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2